

أفعال الرسول في الأمور الدنيوية

د • محمد سليمان الأشقر

نعنى بالأمور الدنيوية ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بقصد
تحصيل نفع في البدن أو المال ، له أو لغيره ، أو دفع ضرر كذلك ، أو
ما دبره في شأن نفسه خاصة أو شئون المسلمين عامة ، لغرض التوصل
الى جلب نفع أو دفع ضرر •

ويشمل هذا النوع من الأفعال الأضرِب التالية :

الضرب الأول : الأفعال الطبية ، وهى ما يجريه على بدنة خاصة ،
أو أبدان غيره من الناس بقصد دفع مرض خاضر أو متوقع •
فقد تناول النبي صلى الله عليه وسلم ، أو أعطى غيره ، أطعمة
وأشربة متنوعة ، على سبيل حفظ الصحة ، أو لدرء أمراض معينة ،
كألبان الابل وأبوالها (١) •

وكذلك تعاطى وعاطى أنواعا مختلفة من العلاج ، فقد احتجم

(١) البخارى ١٠/١٧٨ •

واستعط (٢) ، وكانت حجامته في وسط رأسه (٣) . وكانت حجامته من شقيقة كانت به (٤) .

ولما اثبتت به وجهه أهريق عليه من سبع قرب لم تحلل أو كيتهن (٥) . ولما جرح بأحد ، ألصق على جرحه رماد حصير محترق ليرقا الدم (٦) . ودأوى بريقه مع تراب ، وقال « تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ، يشفى سقيمنا ، باذن ربنا » (٧) .

• ورفض أدوية معينة كاللذود (٨) .

الضرب الثاني : الأفعال في الزراعة ، بأن يزرع أنواعا معينة من النبات ، أو يزرع بطريقة ما ، أو يسقى المزروعات كذلك ، أو يفعل بالنبات شيئا بقصد تكثير إنتاجه أو تحسينه أو نحو ذلك .

وشبيه بها ما يفعل بالحيوان بقصد تكثير إنتاجه وتحسينه ، كاطعامه أعلافا معينة ، أو المزاوجة بين سلالات منه مختلفة بقصد الحصول على نسل أجود .

الضرب الثالث : الصناعة ، بأن يصنع بمادة شيئا ما ، بقصد تحويلها الى شكل ذي أوصاف مخالفة لشكلها الأول ، لتكون أنفع ، أو يحلل مادة ما الى حالات أبسط ، أو يركب مادة مع مادة بقصد الحصول منهما على مادة جديدة ، هي أنفع من الأصل .

الضرب الرابع : التجارة ، بأن يعمل في البيع والشراء ، في أشياء معينة في ظروف معينة ، بقصد تحصيل مكسب من فروق الأسعار .

الضرب الخامس : أنواع أخرى من المكاسب كرعى الغنم ، أو العمل للغير بأجر .

-
- | | |
|---|----------------------|
| • البخارى ١٠/١٥٢ (٣) | • البخارى ١٠/١٤٧ (٢) |
| • البخارى ١٠/١٦٧ (٥) | • البخارى ١٠/١٥٣ (٤) |
| • البخارى ١٠/٢٠٨ (٧) | • البخارى ١٠/١٧٤ (٦) |
| (٨) حديث اللذود : البخارى ١٠/١٦٦ واللذود ماسقى من الدواء بالمسعط فى الفم (اللسان) . | |

الضرب السادس : التدابير التى اتخذها صلى الله عليه وسلم فى الحرب من استعمال المجانيق والسيوف والرماح والسهام وتربية الخيل للقتال وحفر الخنادق وترتيب الجيوش وتدريبها .

الضرب السابع : التدابير التى اتخذها صلى الله عليه وسلم فى الادارة المدنية؛ من اتخاذ الولاة والكتاب والحراس والحجاب والسفراء ، وكذلك الأعلام والشعارات ، والمرافق من الطرق والعصون وغيرها^(٩) . فهذه الأضراب وأمثالها قد وقع من النبى صلى الله عليه وسلم الكثير من أفرادها ، ونقل لنا أشياء من ذلك .

والنظر فى الأحكام التى يسكن أن تدل عليها مثل تلك الأفعال من وجهين :

الوجه الأول : أصل الطب والزراعة ، والصناعة والتجارة ، والقصد الى تحصيل المكاسب ، والسعى لتحقيق التدابير المدنية والعسكرية المناسبة ونحو ذلك ، يستفاد من فعله صلى الله عليه وسلم فى ذلك إباحته ، وأنه لا يخالف العقيدة ولا الشريعة . وقد يترقى الى درجة الاستحباب أو الوجوب بحسب الأحوال الداعية اليه .

وفى الحديث القولى اشارة الى ذلك حيث قال صلى الله عليه وسلم^(١٠) « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده » ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » .

ومن قال فى الأمور الجبلية التى فعلها صلى الله عليه وسلم أنه يستحب لنا التأسى بها ، فكذلك يقول هنا ، ومن ادعى الوجوب فكذلك . الا أن القول بأن الأصل فيها الإباحة أصوب كما تقدم فى أفعال الجبلية الاختيارية .

الوجه الثانى : الأمر الذى عمله بخصوصه ، هو مباح له وقد يكون مستحبا له أو واجبا عليه لاعتقاده صلى الله عليه وسلم أنه هو المؤدى الى غرض مستحب أو واجب .

(٩) انظر الكتاب القيم فى تفاصيل ذلك : التراتيب الادارية لمؤلفه عبد الحى الكتانى . نشرته بيروت ، دار احياء التراث العربى ، صورة بالافست .

(١٠) رواه البخارى ٤/٣٠٣

لكن هل يكون حكم مثله بالنسبة لنا كذلك ، كما لو شرب دواء معيناً لعلاج مرض معين ، فهل يستحب لنا شرب ذلك الدواء لذلك المرض ، أو يجب ، بل هل يباح بناء على ذلك أم لا ؟
هذا ينبى على أصل ، وهو أن اعتقاداته أو ظنونه صلى الله عليه وسلم في الأمور الدنيوية هل يلزم أن تكون مطابقة للواقع ، بمقتضى نبوته ، أو أن هذا أمر لا صلة له بالنبوة ؟ اختلف العلماء في ذلك على مذهبين :

المذهب الأول : انه صلى الله عليه وسلم معصوم من خطأ الاعتقاد في أمور الدنيا ، بل كان كل ما يعتقد في ذلك فهو مطابق للواقع .
ولم نجد أحدا من قدماء الأصوليين ، صرح بمثل هذا المذهب .

ولكنه لازم لمن جعل جميع أفعاله صلى الله عليه وسلم حجة حتى في الطبيات والزراعة ونحوها . وهو لازم أيضا لمن صحح منهم أن تقريره صلى الله عليه وسلم لمخبر عن أمر دنيوى يدل على صحة ذلك الخبر ، كما فعل السبكي وأيده المحلى والبناني (١١) .

والذين عند حصرهم أقسام الأفعال النبوية ، لم يذكروا الفعل النبوى في الأمور الدنيوية ، كقسم من أفعاله لا دلالة فيه ، يظهر أنهم يقولون بهذا القول ، اذ يلزمهم أن يكون فعله صلى الله عليه وسلم في الطب مثلا دليلا شرعيا . من هؤلاء مثلا أبو شامة ، والسبكي ، وابن الهمام ، وغيرهم .

وابن القيم في كتابه (الطب النبوى) (١٢) يذهب الى حجية أفعاله صلى الله عليه وسلم في الطب ، فيلزمه القول بهذا المذهب .

ويظهر أن هذه طريقة المحدثين ، فانا نجد عند البخارى مثلا هذه الأبواب ، ولم يذكر فيها من الأحاديث الا أحاديث فعلية (باب السعوط)

(١١) أنظر جمع الجوامع وشرحه وحاشيته ١٢٧/٢ ، ١٢٨ ، وأيضا ٩٥/٢
(١٢) هو بعض كتابه المشهور (زاد المعاد فى هدى خير العباد) وقد طبع أيضا مفردا .

(باب أى ساعة يحتجم) (باب الحجامة فى السفر) (باب الحجامة على الرأس) (باب الحجامة من الشقيقة والصداع) (١٣) وعند غيره من المحدثين ، كأصحاب السنن تبويبات متشابهة • ويوافقهم الشراح غالبا على ذلك ، فيذكرون استحباب أدوية معينة ، لأمراض معينة ، بناء على ما ورد فى ذلك من الأفعال النبوية •

المذهب الثانى : أنه لا يجب أن يكون اعتقاده فى أمور الدنيا مطابقا للواقع ، بل قد يقع الخطأ فى ذلك الاعتقاد قليلا أو كثيرا • بل قد يصيب غيره حيث يخطئ هو صلى الله عليه وسلم •

قالوا : وليس فى ذلك حط من منصبه العظيم الذى أكرمه الله به ، لأن منصب النبوة منصب على العلم بالأمور الدينية ، من الاعتقاد فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والأمور الشرعية • أما إذا اعتقد أن فلانا مظلوم فإذا هو ظالم ، أو أن دواء معينة يشفى من مرض معين فإذا هو لا يشفى منه ، أو أن تدييرا زراعيا أو تجاريا أو صناعيا يؤدى الى هدف معين ، فإذا هو لا يؤدى اليه ، أو يؤدى الى عكسه ، أو أن تدييرا عسكريا أو اداريا سينتج مصلحة معينة ، أو يدفع ضررا معينة ، فإذا هو لا يفعل ، فإن ذلك الاعتقاد لا دخل له بالنبوة ، بل هو يعتقده من حيث هو انسان ، له تجاربه الشخصية ، وتأثيراته بما سبق من الحوادث ، وما سمع أو رأى من غيره مما أدى الى نتائج معينة ، فكل ذلك يؤدى الى أن يعتقد كما يعتقد غيره من البشر ، ثم قد يكشف الغطاء فإذا الأمر على خلاف ما ظن أو اعتقد •

وقد صرح بأصل هذا المذهب دون تفاصيله القاضى عياض (١٤) والقاضى عبد الجبار الهمدانى المعتزلى (١٥) والشيخ محمد أبو زهرة (١٦)

(١٣) صحيح البخارى ١٤٥/١٠ - ١٥٢ •

(١٤) الشفاء ١٧٨/٢ •

(١٥) المغنى ٢٥٦/١٧ حيث جعل من شرط الاقتداء بالفعل « أن يكون مما له مدخل فى الشرع ولا يكون جعل مما يفعل للمنافع والمضار » •

(١٦) كتابه : تاريخ المذاهب الفقهية ص ١٠ •

وظاهر الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كغيره من الناس في ذلك ، بل فيه التصريح بأن أصحاب الخبرة في صنائعهم وتجاراتهم وزراعاتهم قد يكتفون أعلم منه بدقائقهما . إلا أن القاضي عياض جعل الخطأ في ذلك نادرا ، لا كثيرا يؤذن بالبله والغفلة (١٧) .

ويحتج لهذا المذهب بأدلة منها :

أولا : حديث تأييد النخل ، ففي صحيح مسلم عن رافع بن خديج أنه قال « قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فاذا هم يأبرون النخل فقال : « ما تصنعون ؟ » قالوا : كنا نصنعه . قال : « لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا » فتركوه ، فنفضت ، فذكروا ذلك له . فقال : « انما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر »

وفي رواية طلحة ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما أظن ذلك يعني شيئا » فأخبروا بذلك فتركوه . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : « ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فاني انما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فاني لن أكذب على الله » وفي رواية أنس : « أتمم أعلم بدنياكم » (١٨) .

وشبيه به حديث ابن عباس في قصة الخرص (١٩) « وفيه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنا بشر فما حدثتكم عن الله فهو حق ، وما قلت فيه من قبل نفسي فانما أنا بشر » .

وقد رد الاستدلال بهذا الحديث ، بأن المراد : أتمم أعلم بدنياكم من أمر دينكم (٢٠) ويكون توبيخا لهم .

(١٧) الشفاء ١٨٠/٢

(١٨) راجع لروايات هذا الحديث : صحيح مسلم ١٨٣٥/٤ ومسند

أحمد ١٥٢/٣ .

(١٩) ذكره القاضي عياض : الشفاء ١٧٨/٢ ولم يعزه .

(٢٠) البناني : حاشيته شرح جمع الجوامع ١٢٨/٢ وأيضا : على القاري :

شرح الشفاء .

وسياق الأحاديث على اختلاف رواياته يأبى هذا التأويل ويبطله .

ثانيا : حديث أم سلمة رضى الله عنها أن النبی صلى الله عليه وسلم قال (٢١) : « انما أنا بشر ، وأنکم تختصمون الى ، ولعل بعضکم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فانما أقطع له قطعة من النار » .

وفي رواية الزهرى للحديث المذكور (٢٢) : « انما أنا بشر ، وانه يأتينى الخصم فلعل بعضکم أن يكون أبلغ من بعض ، فاحسب أنه صادق ، فأقضى له بذلك » .

إذا ثبت الأصل الذى ذكرناه آنفا ، فانه ينبنى عليه أن ما فعله صلى الله عليه وسلم فى أمور الدنيا مما مرجعه الى تجاربه الخاصة ، وخبرته الشخصية ، وتفكيره وتقديره فى الأمور الاندنيوية التى ليس لها علاقة بالدين ، لا يدل على مشروعية ذلك الفعل بالنسبة الى الأمة .

وممن صرح بهذه القاعدة بصفتها العامة من الأصوليين القدامى القاضى عبد الجبار (٢٣) .

وصرح به حديثا ولى الله الدهلوى (٢٤) ومحمد أبو زهرة (٢٥) ، وعبد الوهاب خلاف (٢٦) ، وعبد الجليل عيسى (٢٧) ، وفتحى عثمان (٢٨) .

(٢١) البخارى ١٥٧/١٣ وأصله عند مسلم وأبى داود .

(٢٢) البخارى ١٧٢/١٣ .

(٢٣) المغنى ٢٦٩/١٧ .

(٢٤) حجة الله البالغة ٢٧٢/١ .

(٢٥) كتاب : تاريخ المذاهب الفقهية . ص ١٠ .

(٢٦) كتابه : أصول الفقه ص ٤٣ .

(٢٧) اجتهاد الرسول .

(٢٨) الفكر القانونى الاسلامى بين أصول الشريعة وتراث الفقه ،

القاهرة ، مكتبة وهبة (د . ت) ص ٦٨ .

أما من حيث التفصيل فقد وضعه ابن خلدون في المقدمة ، في شأن ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في شأن الطب ، حيث قال :

« الطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل - يعنى طب البادية المبنى على تجارب قاصرة - وليس من الوحي في شيء ، وانما هو أمر كان عاديا للعرب ، ووقع في ذكر أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ، من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجيلة ، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل ، فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العادات • وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع ، فقال : أأنتم أعلم بأمور دنياكم • قال : فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث المنقولة على أنه مشروع • فليس هناك ما يدل عليه • اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الايمانى فيكون له أثر عظيم النفع ، وليس ذلك في الطب المزاجى » أ هـ (٢٩) •

رأينا في ذلك :

نختار المذهب القائل بأن أفعاله الدنيوية ليست تشريعا ، وذلك لاجل الأدلة الآتية :

١ — قوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى اللى) وقوله (قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا) وقد تكرر التأكيد في الكتاب على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم وإنه ليس إلها ولا ملكا ولا يعلم الغيب • ومن المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لما نبأه الله عز وجل ، لم يمنعه من تصرفاته البشرية كما يتصرف غيره من الناس على غالب الظنون والتقاير التي تخطيء وتصيب ، ولا تعهد له بأن يمنعه من الخطأ في ذلك ، فالأصل استمرار حاله في ذلك كما كان قبل النبوة ، لما لم يدل على انتقاله عن ذلك دليل •

وقد أكدت السنة النبوية ما بينه القرآن من ذلك ، كما يأتي :

(٢٩) المقدمة ص ٤٩٣ •

٢ — قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشر فإذا أمرتكم بأمر دينكم فاقبلوه • وإذا أمرتكم بشيء من دنياكم فانما أنا بشر » • وفي رواية : أنتم أعلم بدنياكم • وقد تقدم هذا الحديث •

وبهذا الحديث ، برواياته المختلفة ، يؤصل النبي صلى الله عليه وسلم أصلا عظيما في الشريعة ويبينه لنا ، ويشعرنا بأن بعض أفراد الأمة قد يكونون أحيانا أعلم منه صلى الله عليه وسلم بما يتقنونه من أمور الدنيا ، والمقصود أهل الخبرة في كل فن وصناعة ، وأنه لا داعى شرعا لالتفاتهم الى ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم من ذلك الا كما يلتفتون الى قول غيره من الناس •

٣ — ما ذكر ابن اسحاق في سيرته (٣٠) ، في سياق غزوة بدر ، قال : حدثت عن رجال من بنى سلمة ، أنهم ذكروا أن الحباب ابن المنذر ، قال : يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدمه • ولا تتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة • فقال : يا رسول الله • فإن هذا ليس بمنزل • فانهض حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فنزله • ثم نعور ما وراءه من القلب • ثم بنى عليه حوضا فسلئوه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى •

٤ — ما ورد في الحديث أن نفرا دخلوا على زيد بن ثابت ، فقالوا له : حدثنا أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : كنت جاره ، فكان اذا نزل عليه الوحي بعث الى فكتبته له ، فكان

(٣٠) سيرة ابن هشام ، وعليها الروض الانف للسهيلى ، بتحقيق عبد الرحمن الوكيل • القاهرة دار الكتب الحديثة (د • ت) ٩٧/٥ •

إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ،
وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم (٣١) .

ه — ما ورد عن هشام بن عروة ، ان عروة بن الزبير كان يقول
لعائشة (٣٢) « يا أماء ، لا أعجب من فهمك ، أقول : زوجة
رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت أبي بكر . ولا أعجب من
علمك بالشعر وأيام الناس : أقول : ابنة أبي بكر ، وكان أعلم
الناس أو من أعلم الناس . ولكن أعجب من علمك بالطب ،
كيف هو ومن أين هو ؟ » قال : فضربت على منكبه ، وقالت :
« أى عريّة ! ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم
عند آخر عمره ، أو في آخر عمره . فكانت تقدم عليه وفود
العرب من كل وجه ، فينعتون له الأنعام ، وكنت أعالجها له » .

مسائل متممة لبحث الأفعال النبوية الدنيوية :

المسألة الأولى :

إذا انضم الى الفعل الدنيوى قول أمر ، فذلك يخرج الأمر من
باب الأفعال ويعود النظر الى الدليل القولى ، وذلك خارج عن موضوع
بحثنا .

وليت بعض الباحثين يتولى بحث الأقوال النبوية المتعلقة بالأمور
الدنيوية ليصل فى شأنها الى قول فصل ، ثم يجمعها من كتب الحديث
وينص على ما يصح استفادته منها من الأحكام وما لا يصح .

المسألة الثانية :

إذا نص القرآن على أمر دنيوى فهو حق لا مرية فيه ، لأنه من
الله تعالى الذى لا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض .

(٣١) ذكره الدهلوى فى حجة لله البالغة ٢٧٢/١ ولم يعزه .

(٣٢) رواه أحمد فى مسنده (٦٧/٦) .

فان كان الفعل النبوى فى الشئون الدنيوية استجابة لارشادات القرآن التى تتعلق بذلك الأمر ، فيكون الفعل بياناً أو امثالاً للقرآن ، ويحصل على الشرعى • ولعل خير مثال على ذلك شربه صلى الله عليه وسلم العسل للتداوى (٣٣) ، فان ذلك تطبيق لقوله تعالى (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) •

وشبيه بذلك ما أخبر صلى الله عليه وسلم أنه فعله عن وحى من الله تعالى •

المسألة الثالثة :

إذا تردد الفعل بين أن يكون دنيوياً أو دينياً حمل على الدينى ، لأنه الأكثر من أفعاله صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم •

(٣٣) الخطيب البغدادي عن أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى اقتصح كفاً من شونيز وشرب طيه ماء وعسلاً (الفتح الكبير)